ديوان الخالديين

أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدي

دار صادر
بيروت

مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق

ديوان الخالديين

أبي بكر محمد وأبي عثمان سعيد ابني هاشم الخالدي

جمعه وحققه

الدكتور سامي الدهان

عضو مجمع اللغة العربية بدمشق

دار صادر

بيروت

طبع بإذن من المجمع العلمي العربي بدمشق
رقم ٥٠٤/ص بتاريخ ١٩٩١/١٢/٨

تأسست سنة ١٨٦٣
للطباعة والنشر
بيروت - لبنان ص.ب ١٠ تلكس ٤٢٥٥٥ Lc
هاتف : ٤٤٨٨٢٧ – ٠١ ٤١٣٢٥٦ – ٠١ ٩٢٨٢٧١ – ٠٤

مقدّمة المحقق

تمهيد ـ حياة الخالديين وشعرهما ـ جمع الشعر
خصائص الديوان ـ طريقة التحقيق

تمهيد

توزّع التراث العربي في جنبات الأَرض بالفتوح ، وتفرق في الدنيا بالحروب والغزوات ، ثم تعاونت الأَحداث والنكبات على النيل منه ، فأصابته الأرضة والرطوبة والغبار والضياع والتلف ، ولفّه الإهمال والجهل ، وفقد كثير منه ، وضاع علينا بذلك كثير .

ونحن لا نستطيع أَن نفهم الأَدب العربيّ اليوم إلاّ حين نجمع هذا التراث ونقرؤه ، ونعيد النظر في الآراء الرائجة حوله ، فإن أَكثر النقد المعاصر لم يكتب إثر قراءة هذه النصوص ، وإنما بني على أَحكام ونظريات قديمة تداولها المعاصرون عن الأَجداد من غير تعديل ، كأنها نظريات بديهية لا تحوج إلى نقاش أَو تعمق .

ومن الخير أَن يعود نقادنا إلى التراث القديم ، وأَن يقرؤوه من جديد بمنظار العصر ، فإذا عجزوا عن جمع هذا التراث كاملاً كما خلفه أَصحابه ، فعليهم أَن يجعلوا منه «مختاراً» يشفي في كثير ، ويغني في فهم كثير من نواحي الأُدباء .

ذلك ما فعلناه حين عمدنا إلى دراسة العصر الحمداني ، فنحن نعلم أَنَّ للشعر الحمداني ميزاته وخصائصه ، وهو شعر الشَّام ، يختلف بها عن شعر الأَمويين ، ويختلف كذلك عن شعر العبّاسيين .

فالشعر الشامي يكاد يكون خاصاً بهذه المدرسة التي عاشت في القرن الرابع بأطراف الشام، تضم شاعر العرب «المتنبي»، وزميله أبا فراس الحمداني، والسريّ الرفّاء، والمصيصي، والسلامي، والنامي، والببغاء، والصنوبري، والوأواء، وكشاجم، والخالديّين.

وهذه المدرسة الشامية تنافس أصحابها في رضا الشعر الرفيع، وانتصار المعنى، وتجديد الفكرة، وابتعد أكثرهم عن التقليد، فأصبحت بضاعة الشعر لا تروج في هذا البلاط إلاّ إذا كان فيها الجديد من التصوير والتفكير، والتعبير.

ولسنا نريد هنا أن نتحدث عن مزايا الشعر الحمداني وخصائصه، فلذلك مكانه في دراسة خاصة، ولا نريد كذلك هنا أن نصف كيف جمعنا دواوين هؤلاء الشعراء في البلاط الحمداني[1]، ففي مقدمة كل ديوان منها ذكرنا الطريقة التي سلكناها في تحقيقه، ووصفنا المخطوطات التي رجعنا إليها أو المخطوطات التي قابلنا بينها.

وإنما نريد أن نصف في الصفحات التالية الطريقة التي نشرنا بها شعر الخالديين، والأساليب التي عالجنا بها أصالة هذا الشعر وصحة نسبته إلى الأخوين.

(١) نشرنا منذ سنة ١٩٤٥ ديوان أبي فراس الحمداني، ثم نشرنا ديوان الوأواء الدمشقي، سنة ١٩٥٠؛ وتحت أيدينا ديوان الصنوبري يمثل للطبع قريباً.

قبل أن نتحدث عن شعر الخالديين ، نحب أن نسرد في سطور حياة الرجلين، نرسلها بين يدي ما جمعناه من ديوانهما[1] . وحياة الرجلين في مصادرنا القديمة شحيحة تكاد تقف عند أمور سطحيّة، فقد ذكر بعض الذين ترجموا لهما أنهما نسبا إلى الخالدية — وهي قرية قرب الموصل — وذكر غيرهم أنهما نسبا إلى خالد بن عبد القيس ، فاشتهرا باسم الخالديين .

والأخ الأكبر هو أبو بكر محمد الخالدي ، وقد توفي سنة ٣٨٠ﻫ والثاني هو أبو عثمان سعيد الخالدي ، توفي سنة ٣٩٠ﻫ ، اجتمعا على كل مشرب ، واتفقا في كل غاية ، ونطقا معاً بلسان واحد ، فكأنهما أحبا معاً ، وعشقا معاً ، وتغزلا معاً ، وطافا في البيع والأديرة ، وتنقلا في المدن والدساكر والحواضر ، ولذلك كانت ترجمتها واحدة ، يقرن ذكرهما معاً ، ولا يفصل بينهما ، كما راج

(١) بسطنا حياتهما مفصلة في مقدمة الكتاب الذي حققناه من تأليفهما وهو « التحف والهدايا » ونشرناه بالقاهرة سنة ١٩٥٦ ، وكتبنا كذلك صفحات عنهما في كتابنا « قدماء ومعاصرون » طبعة دار المعارف بالقاهرة ١٩٦١ ، من ص ٣١ — ٥٠ فليرجع إليها من أراد التوسع .

في الغرب ذكر الأخوين « غريم » والأخوين « غونكور » والأخوين « تارو » وغيرهم . . .

ولقد ذكر الأخوان معاً في المصادر ، ونسب الشعر إلى كليهما جميعاً ، وفي الواقع أن أحدهما كان ينظم الأبيات وتسير بين الأدباء باسم الخالديين ، فيختلط الأمر ، وتشتهر باسمهما جميعاً ، فكأنهما شخص واحد ، وشاعر واحد ، بل لكأنهما توأمان ، وهذا نادر قليل في أدبنا العربي .

وقد دلّ شعرهما على أنهما انتقلا من « الخالدية » إلى الموصل ، ومن الموصل إلى بغداد ، ومن بغداد إلى حلب ، فدمشق . . . فعرفا شخصيات كثيرة ، وقابلا كثيراً من العلماء واللغويين والأمراء والملوك فالتحقا بسيف الدولة واتصلا بالصابيء والمهلبي واختلطا بالندامى ، والشرب والصحب ، فأفادا سعة في المعرفة وفي الخبرة والحكمة وتجارب الدهر .

ولكن شعرهما سكت عن كل شيء يدل على طفولتهما أو ساعاتهما الأخيرة ، فما نعرف سنة ولادتهما ، ولا نعرف مكان موتهما ، فلذلك نجهل مقدار السنين التي عاشها كلّ منهما ، وكل ما نملكه في دراستهما هو هذا الشعر الذي تجمع لدينا ، فقرأناه ، واستخلصنا هذه الخطوط العريضة منه .

ولقد أردنا ونحن نجمع هذا الشعر أن نتأكد من أصالته وصحة نسبته إلى الشاعرين، فقد ألصق الرواة قديماً بالشعراء ما ليس منهم، فعلوا ذلك بالشعر الجاهلي والإسلامي والأموي والعباسي، وأسرفوا في العصر الحمداني.

ذلك أن هذا العصر عرف منافسات ومسارقات وقع فيها الشعراء وهم كثرة، بما لا يشبهه غيره من العصور، وقد أصاب الشاعرين من تهم السرقة والانتحال في عصرهما وبعد عصرهما ما يلفت النظر، فقال ابن النديم صاحب الفهرست – وهو يعرفهما شخصياً من غير شك – بعد أن أثنى على كثرة حفظهما :

« وكانا مع ذلك إذا استحسنا شيئاً غصباه صاحبه حياً أو ميتاً، لا عجزاً منهما عن قول الشعر، ولكن كذا كانت طباعهما » .

وذكر أبو منصور الثعالبي صاحب اليتيمة، وهو أحد الذين تيَّمهم الشعر الشامي في مديح الشاعرين ما ذكر، ثم قال :

« وقد ذكرنا ما شجر بينهما وبين السريّ الرفاء في شأن المصالتة والمسارقة، وما أقدم عليه السريّ من دس أحسن أشعارهما في شعر كشاجم » .

وهكذا اتهم الثعالبيُّ، صراحةً، الشاعر السريّ الرفاء بدسّ

الأَشعار على الخالديين ، وأَثبت مواضع الدسّ والتزييف في كتابه، وصدّقته في ذلك النسخ التي رأَيناها لكشاجم ، فشهدت بمثل شهادة الثعالبي ، وأَكدت في مواضع كثيرة هذا القول .

وسببَ هذه العداوة بين الخالديّن ، والسريّ الرفاء ، ذكرها الخطيب ٱلبغدادي ، في ٱلقرن الخامس ، على تفصيل ننقل بعضه هنا ، قال(١) :

« وكان بينه — أي السريّ — وبين أَبي بكر وأَبي عثمان محمد وسعيد ابني هاشم الخالدّيين حالة غير جميلة ، ولبعضهم في بعض أَهاج كثيرة ، فآذاه الخالديان أَذى شديداً ، وقطعا رسمه من سيف الدولة وغيره ، فانحدر إلى بغداد ، ومدح بها ٱلوزير أَبا محمد المهلبيّ ، فانحدر الخالديان وراءه ، ودخلا إلى المهلبي ، وثلبا سرياً عنده ، فلم يحظ منه بطائل »

وتابع الخطيب قصة الخالديين في عداوة السريّ فقال :

« ... وعدم الشاعر القوت ، فضلاً عن غيره ، ودفع إلى الوراقة فجلس يورّق شعره ، ويبيعه ، ثم نسخ لغيره بالأُجرة ،

(١) تاريخ بغداد ٩ / ١٩٤ ، وانظر كذلك رواية المنتظم لابن الجوزي ٧ / ٦٢ .

وركبه الدَّين ، ومات ببغداد على تلك الحال ، بعد سنة ستين وثلاثمائة . . . »

وهذه الحال التي يصفها البغدادي تؤكد ما عمله السري ضد الخالديين من دس أحسن أشعارهما في ديوان كشاجم ، لتثبت دعواه « فكان يدعي عليهما بسرقة شعره وشعر غيره » – كما يقول ياقوت[1] –

ولقد علّل ابن خلكان في القرن السابع هذا العمل من جانب السريّ الرفاء ، فقال وهو يترجم له[2] :

« وكان السريّ مغرى بنسخ ديوان أبي الفتح كشاجم الشاعر المشهور وهو إذ ذاك ريحان الأدب بتلك البلاد ، والسريّ في طريقه يذهب ، وعلى قالبه يضرب ، فكان يدس فيما كتبه من شعره أحسن شعر الخالديين ، ليزيد في حجم ما ينسخه ، وينفق سوقه ، ويغلي شعره ، ويشنع بذلك عليهما ، ويغضّ منهما ، ويظهر مصداقَ قوله في سرقتهما .

« فمن هذه الجهة وقعت في بعض النسخ من ديوان كشاجم

(١) معجم الأدباء ١١ / ٢٠٨

(٢) وفيات الأعيان ١ / ٢٥٢

زيادات ليست في الأصول المشهورة » .

وقبل أن نمضي في تتبع النقاد ، وآراء الأدباء ، نحب أن نقف عند هذه الكلمة في قول ابن خلكان العالم ، فهو يحدّد « بعض النسخ » لأن بعض النسخ الأخرى قد كتبت بعد وفاة السريّ ، فكانت النسخ التي كتبها السريّ من ديوان كشاجم وما نقل عنها تدخل الزيادات في صلب ديوان كشاجم من غير أن تشير أو تنبه طبعاً إلى ما فيها من زيف ودس ، وأما النسخ الأخرى فقد رأت من غير شك ما تركه أبو عثمان الخالدي بيده من ديوانه وديوان أخيه ، لذلك أشارت في نسخ كشاجم إلى الزيادات التي حصلت من كتابة السريّ .

وأما ابن كثير القرشي ، في القرن الثامن ، فقد أخذ بنظرية ابن خلكان ، وزاد عليها فقال(١) :

« وكان — أي السريّ — معنياً بنسخ ديوان كشاجم الشاعر ، وربما زاد فيه من شعر الخالديين ليكثر حجمه » .

ويفهم القارىء من استعراض آراء النقاد ، أن القدماء لفت نظرهم قبل كل شيء الزيف في الشعر ، والانتحال الذي صنعه السريّ ،

(١) البداية والنهاية ١١ / ٢٧٤

فألصق بكشاجم ما ليس له من شعر الخالديين . ويبدو أنهم اتفقوا في ذلك جميعاً ، فلم يشذَّ عن ذلك ناقد بينهم ، فإما أن يكون كل ناقد قد أخذ برأي من سلفه من النقاد من غير أن يتسلّم نسخة الديوان بين يديه ، أو أنه تحقق بنفسه قضية الدس والإلصاق والمسارقة . وما نستطيع أن نقطع برأي في ذلك مطلقاً .

والذي يهمنا هنا هو أن قضية المسارقة والتزييف كانت « القضية الهامة » الأولى عند القدماء في تحقيق الدواوين وأصالتها ، كما هي اليوم « القضية الهامة » عند المعاصرين ، سواء بسواء .

وقد تبين لنا بعد هذا العرض عن الديوان ما كان من طباع الخالديين وقسوتهما ، فقد افتقر الشاعر السريّ بسببهما ، وكان على براعة شعره وقوة بيانه يشكو الحاجة ويشتد في طلب القوت ، لأنهما خاصماه ، واستمرا في أذاه ، حتى اتخذ حرفة النسخ . وأصبح من حقه أن ينتقم لنفسه ، وأن يسرق أحسن شعرهما ، وأن يلصقه بصديقه وأستاذه كشاجم ، وقد زاد بذلك في حجم ديوان كشاجم ، وربح المال ، وردّ أذى الخالديين اللذين قطعا رسمه في الموصل ، وفي بغداد ، وربما في بلاط سيف الدولة كذلك .

فالأمر إذن يتعلّق بديوان كشاجم قبل كل شيء ، وتنقيته من

شعر الخالديين ، وردّ الفضول عنه ، ودفع الزوائد عن قصيده . فالفضول والزوائد ربما كانت في جملتها من شعر الخالديين ، وقد ضاع ديوانهما فلا نستطيع أن نقطع برأي ، ولكن بقي ديوان كشاجم.

لذلك عجنا إلى مخطوطات كشاجم في العالم ، وفتشنا عنها في الخزائن ، والنسخ كثيرة وافرة ، وبعد أن جمعناها في أشرطة وصور ، واشترينا بعض نسخ ديوانه من الخزائن الخاصة ، عمدنا إلى دراستها ، وموازنة قصائدها بعضها ببعض ، لنتبين نوع النسخ التي تشترك في الزيادات ، ولنلاحق الدعوى والتثبت من تزييف السريّ لديوان كشاجم أولاً ، ثم دسّ أشعار الخالديين فيه.

ولقد قلبنا النظر في نسخ ديوان كشاجم في استانبول وبرلين وهولندة ، وبرنستون ، والقاهرة ، فرأينا أن أضبطها نسخة دار الكتب المصرية ، وقد كتبت حوالي سنة ٦٠٣هـ ، بمدينة حلب ؛ وكانت هذه النسخة لأول عهدنا بها خلال الحرب الثانية ، مختلة الأوراق ، مضطربة القصائد ، فاستأذنا الدار في إصلاحها ، وحللنا عقد الأوراق ، وبعد دراسة طويلة أعدنا النسخة إلى ما كانت عليه ، كما تركها الناسخ القديم ، وبقيت مع ذلك أوائل الأوراق مخرومة في النسخة .

وما تزال صور هذه النسخ بين أيدينا ، ننظر في الجداول التي صنعناها لأوراقها ومواقع قصائدها ، لنتبين القصائد التي تشترك النسخ القديمة في روايتها لكشاجم ، ونتبين كذلك القصائد التي تنفرد بعض النسخ في إلحاقها بكشاجم ، فهي من الزوائد التي صنعها السريّ الرفاء .

فالقصائد الزائدة ، ليست من شعر كشاجم على كل حال ، وقد تنبّه بعض الرواة إلى ذلك ، فأشاروا في نسخهم بوضوح إلى القصائد المنسوبة إلى كشاجم وليست له ، فجعلها أكثرهم في ختام النسخ .

وحين رجعنا إلى « يتيمة الدهر » رأينا أن مؤلفها الثعالبي يشير إلى أبيات منسوبة إلى كشاجم ، وليست له ، بل إنها للخالديين ، فرأينا هذه الأبيات عينها في النسخ التي تنفيها عن كشاجم ، وتؤكد أنها من الزيادات . وهذا مصداق قول ابن خلكان في القرن السابع وقد أدرجناه قبل قليل :

« فمن هذه الجهة وقعت في بعض النسخ من ديوان كشاجم زيادات ليست في الأصول المشهورة »

ولعل هذا كلّه يدعو إلى التصديق بأن بين ديوان كشاجم ، وديوان الخالديين ما ذكرناه من تشابك وتداخل ، وهذا الذي دفعنا إلى إيثار ديوانهما ، فعملنا على جمع شعرهما من المصادر المختلفة في حذر وخوف ، وقد بينا في تفصيل سبب ذلك .

ذكر القدماء ديوان الخالديين كما قلنا ، وأشاروا إليه خلال حياة الشاعرين ، فقد حكى ابن النديم في كتابه قال(1) :

« وقد عمل أبو عثمان شعره وشعر أخيه قبل موته ، وأحب غلاماً يعرف برشأ عمله أيضاً نحو ألف ورقة »

وبلغ الديوان إلى الثعالبي فقال في كتابه « ثمار القلوب(2) » :

« قرأت أنا بخطه — أي بخط الغلام — في مجموع من شعر الخالديين بخط أحد الأخوين في دفتر أعارنيه أبو نصر سهل بن المرزبان »

وذكر المعري في القرن الخامس نفسه ديوان الرجلين في رسالة الغفران(3) :

« ولهما ديوان ينسب إليهما لا ينفرد فيه أحدهما بشيء دون الآخر ، إلا في أشياء قليلة ، وهذا متعذر في ولد آدم ، إذ كانت

---

(1) الفهرست ، ط . التجارية بالقاهرة ، ص ٢٤٠ ، وابن النديم توفي سنة ٣٧٧ هـ .

(2) طبعة مصر ١٩٠٨ ، ص ١٨٣ ، وقد توفي الثعالبي ٤٢٩ هـ

(3) طبعة دار المعارف ١٩٥٠ ، ص ٣٥٦ .

الجبلة على الخلاف وقلة الموافقة ، فأما أن يعمل الرجل شيئاً من كتاب ثم يتمه الآخر ، فهو أسوغ في المعقول من أن يجتمع عليه الرجلان »

وفي القرن السابع للهجرة ذكره ياقوت ، ونقل عنه في معجم البلدان ، وذكره العمري في القرن الثامن ، ونقل عنه في مسالك الأبصار وترجم للأخوين ، وروى لكل منهما شعراً كثيراً في رواية صحيحة متينة عن نسخة أصيلة سلمت لعصره من غير شك .

وفي القرن نفسه ذكر الحافظ الذهبي في كتابه « سير النبلاء » هذا الديوان ، ونقل قول ابن النديم أن « رشأ » غلام أحد الأخوين رتّب الديوان في ألف ورقة .

وهكذا عاشت نسخ الديوان أربعة قرون على الأقل ، ثم سكتت المصادر عن ذكرها ، فكأنها ذهبت فيما ذهب من كنوزنا ، وضاع من ذخائرنا ، وتفرّقت مخطوطاتها في مكتبات خاصة ، فلم نقف مع ذلك على خبر لوجودها في خزانة عامة أو خاصة ، ولقد وقف بروكلمان منها هذا الموقف نفسه فلم يذكر عنها شيئاً ، ولم يشر إليها جرجي زيدان أو أحمد تيمور في مقالاته عن « نوادر المخطوطات » .

وعبثاً بحثنا عن نسخة للديوان في أرجاء الدنيا ، ونحن نطوف

سعياً وراء دواوين الحمدانيين في الشرق والغرب ، فأُسقط في أيدينا وأعلنا عن عجزنا ، وصممنا على جمع أشعارهما من كتب الأدب والتاريخ المخطوطة والمطبوعة ، خلال سنوات على ما في ذلك من خطر ، وبعد شديد عن الكمال .

ولهذا عمدنا إلى استعراض المظان القديمة من كتب الأدب والشعر والتاريخ ، ورحنا نتسقط الشعر الذي ينسب إلى الخالديّ أو الخالديين معاً . وقد بدأنا بالأخذ عن الثعالبي ، فرأيناه في اليتيمة يروي شعر الأخوين عن نسخة الديوان التي وقعت له بخط أحد الخالديين ، أخذها من أبي نصر سهل بن المرزبان ، وكان مقدار ما رواه لهما يقارب ٣٤٣ بيتاً .

ولقد رتبنا أشعار كل أخ منهما على حدة ، كما فعل الثعالبي ، ثم وقعنا في استانبول على نسخة خطية ثمينة لمسالك الأبصار[1] ترجم صاحبها العمري للشاعرين في سجع جميل وعبارات مقفاة ، وروى من شعرهما لكل واحد على حدة كذلك ما بلغ قرابة ٣٤١ بيتاً ، أخذها عن نسخة للديوان تختلف عن رواية الثعالبي فقد اختار

(١) مخطوطة أيا صوفيا رقم ٣٤٢٨ ج ١٥/٨٤ و – ٩٥ ظ ، وهذا الجزء مختارات من شعر الحمدانيين تسبقها تراجم مسجعة لهؤلاء الشعراء . وهناك نسخة أخرى مصورة في دار الكتب المصرية عن خزانة طوبقبو باستانبول في الجزء العاشر ، ولكنها متأخرة .

غير ما اختارت اليتيمة وبينهما أربعة قرون .

وأضفنا رواية هذا العالم المحقق إلى ما رواه الثعالبي الأديب . فخرجنا من ذلك بهذا « المختار من شعر الأخوين » – كما كان يحلو لهما أن يسميا دواوين القدماء التي انتخبا من عيونها شعراً – ولم نكتف بهذين المصدرين وإنما قرأنا المصادر والمراجع[1] نسأل عما روت من شعر لهما ، فأضفناه إلى ما روى الثعالبي والعمري فكانت هذه المجموعة الشعرية .

ولقد وقعنا على شعر منسوب إليهما جميعاً ، لم نستطع نسبته إلى واحد منهما . فجعلناه في ذيل هذا المختار .

والنصر الذي حققه هذان الناقدان ، في هذا « المختار » من الديوان لشعر الخالديين هو أنهما فصلا بين شعر الأخوين ، وذلك صعب شديد العسر ، لشدة تقارب الموضوعات التي طرقها كل منهما ، وشدة تشابه الأساليب التي تعلق بها كل منهما ، فهي تكاد تتشابه في الألوان والأغراض والأساليب ، بل إن ألفاظها لتتقارب ، وليس ذلك عجيباً لأن الأخوين عاشا معاً فما يكادان يفترقان ، وشربا من كأس واحدة في كل نظمها ، ونهلا من ينبوع واحد في المعرفة والثقافة والعيش والشعر والتجربة .

(١) في آخر هذا الديوان جدول بالمصادر والمراجع التي أخذنا منها شعر الخالديين .

وعلى الرغم من كل هذه العوائق والصعوبات ، مضينا في تحقيق شعر الرجلين ، فكان هذا « المختار » الذي تبقى من ديوان كامل ذكر القدماء أنه كان يبلغ ألف ورقة في عصر ابن النديم خلال القرن الرابع .

ومع ذلك ، نظن أن المختار الذي ننشره هو أجمل ما كان في الديوان بل إنه عين الديوان ، وزبدته وجوهره ، فقد اختار الناقدان من الديوان أحلى ما استحسناه فكان هذا « المختار » وهو دليل الباحثين إلى دراسة الرجلين ، لأنه خلص في رأيهم من الوقوع في معان قريبة أو سطحية ، ومن النادر أن يكثر الحسن « المختار » في أي ديوان أو كتاب .

وفي أعظم الدواوين الشعرية يقع المستحسن المختار ، كما يقع الساقط المبتذل ، لا نكاد نستثني من ذلك شاعراً كبيراً أو صغيراً ، وليست كل الأشعار الموروثة على قدر واحد من التفوق والانتصار ، والشاعر نفسه يجب أن ينفي عنه بعض الشعر إذا لم تدركه الأثرة ، أو رغبة الإبقاء على كل ما كان منه .

ونحن على شدة أسفنا لضياع الديوان ، ووقوفنا عند هـــذا « المختار » الأبتر من شعرهما ، نظن أن « الخالديين » يرضيان عنه لو قدم إليهما في عصرهما . فالناقدان اللذان اختاراه من أكثر الذين

يعرفون ذوق العصر والشاعرين ، وكان على رأسهم « الثعالبي » .
ومن العجيب أن يضيع ديوان الشاعرين ، وأن ننشر لهما «هذا المختار» كأننا نفعل اليوم ما فعلاه للشعراء الفحول منذ ألف عام .

فقد نقل إلينا أنهما اختارا شعر البحتري ، ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، وابن الرومي ، وابن المعتز ، والخباز البلدي ، وبشار ابن برد[١] . ورأينا اختيارهما لشعر بشار ، فقد سلم من عبث الدهر ، وعرفنا به طريقتهما في الاختيار . « فالمختار من شعر بشار » جزء واحد صغير من ديوان كبير ضخم ، ارتضياه لعصرهما[٢] . فلعلهما يرضيان عن هذا « الجزء » من ديوانهما بعد أن عرفنا ذوقهما في الجمع والاختيار ، من خلال كتابهما « الأشباه والنظائر » وقد طبع الجزء الأول منه[٣] ، وعرفناه كذلك من خلال تأليفهما « التحف والهدايا » وقد قلنا إننا حققناه منذ سنين على نسخ خطية عدة ورأينا في تقديمه للقراء أنه يشبه كتب الأدب القديمة الرفيعة ، وأنه يبذ بعضها في الاختيار والذوق والأصالة .

---

(١) ذكرت المصادر كالفهرست والوافي والخزانة لهما : حماسة شعر المحدثين ، وكتاب أخبار الموصل ، وكتاب أخبار أبي تمام ، واختيار شعر البحتري واختيار شعر ابن الرومي ، واختيار شعر مسلم والديارات وشعر ابن المعتز .

(٢) طبع في القاهرة سنة ١٩٣٤ مع شرح التجيبي للمختار .

(٣) طبع في القاهرة سنة ١٩٥٨ .

إن هذا المختار الذي ننشره من ديوان الأخوين يدل على ألوان من مناحي هذه المدرسة الجديدة الشامية في تذوق الشعر ومعالجته. فقد انصرف الشاعران فيه إلى وصف عيشهما وما وقع لهما في دقة وفي فنّ ، فكأن الشعر كان بمثابة رئة يتنفسان بها ، أو قيثارة يغنيان بها أنغامهما ، أو ريشة يرسمان بها أحداث حياتهما.

في هذا المختار نحسّ البرد والحر ونرى الصحو والسكر ، ونقع على الحيوان الذي كان يألفهما والغلام الذي كان يخدمهما ، والأدوات التي كانا يستخدمانها ، والمآكل التي يقبلان عليها والشراب الذي يعكفان عليه .

وفي هذا المختار صورة النزهات والخلوات في الأديرة والبيع ومنازل الصحب وأخدان اللهو ، مما يدل على أن الشاعرين عاشا في طائفة من المجان ، تنطلق إلى اللهو والعبث ، فلا تنظر إلى وقار أو تزمت أو خوف أو عار .

ويبدو أن الشاعرين خرجا على ما تعارف أكثر الناس عليه ،

كأنهما يريدان أن يدلا على حرية خالصة للشاعر أو الفنان ، يستعملها في سبيل ازدهار فنه وانتصار أدبه ، فهو صاحب رسالة يعمل لتحقيقها.

لذلك كان شعرهما الذي حققناه يخرج في جملته على الشعر العادي ، فصاحبه لا يعيش ليمدح فينال ، ولا ينزل بمديحه عن كرامته وشخصيته ، ولا يهجو ليتكسَّب أو يخيف أَعداءه في صور تتناول الزوجة والأسرة .

إنَّ صاحب هذا الشعر لا يبيع شعره ، ولا ينظم قوافيه في طاعة ممدوحه ، وإنما يقول الشعر لإرضاء نفسه ونشوتها ومسرّة صحبه وغبطتهم ، فحين ينتصر ترتفع الكئوس مزغودة عند سماعه ، وتهتز الرءوس سكرى في اغتباط وفرح .

وفائدة هذا الديوان ليست في الفن الذي ينتصر له وينصره ، فحسب ، وإنما هي كذلك في وصفه لجانب من جوانب الحياة الاجتماعية في العراق والشام خلال القرن الرابع ، فقد قادنا إلى البيع والأَديرة التي كانت منشورة في أَطراف هذه البلاد ، ورسم الحياة فيها من كل أنواعها وطوائفها ، فالجماعة فيه من الرهبان تجدّ حتى تبلغ حدود العلم الرفيع والفلسفة والمنطق ، وتهزل حتى يضج الدير بالعبث والمجون والتحلل من كل شيء .

ولقد رسم الشاعران الأشياء ، كما رسما الأشخاص في دقة وتفصيل وذكاء وابتكار ، ودخلا بين طوائف المجتمع المختلفة ، فرسما أماكن ومواقف لا يبلغها غيرهما من الشعراء ، واختلفا إلى أصناف اللذائذ ، ولم يتورعا عن شيء ، ولم يتراجعا أمام معصية ، وإنما كانا صورة لهذه الفئة العابثة من الشباب التي برئت من كل خوف اجتماعي ، فانصرفت إلى اللهو والمجون لا تفرق فيهما بين بريء وغير بريء .

ولا شك في أن هذه الفئة لم تكن تسعى إلى سلطان غالباً ، ولا تطمح إلى حكم ولا ترغب في منصب أو مفخرة أو مأثرة أو مجد أو ذكر ، وإنما كانت تكتفي من حياتها بما يبلغها العيش البسيط من مأكل ومشرب ومأوى . ولعل أكثر همّها كان في اغتراف السرور تقبل عليه من كل جانب ، تجده عند القينة أو الزق أو السّاقي أو المغني ، فلا تطمع في مقارعة الأبطال ، ولا تطمح إلى مواقع النزال ، ولا تسعى إلى رسم ذلك والعناية به والوقوف عنده كما كان يفعل بعض الشعراء في هذا العصر ، فقد دخل أولئك في شيء ، ودخل هؤلاء في شيء آخر ، ولكل من دهره ما تعوّد .

وكانت فلسفة هؤلاء بسيطة معروفة ، اعتنقها قبلهم شعراء

منذ بشار إلى عصرنا ، وهذه الفلسفة هي الأخذ بالمجون والاستهتار واللامبالاة ، لأنها ترى أن عمر الإنسان قصير ، وأن أيام الهموم مقبلة لا ريب فيها حين العجز والشيخوخة والمرض والفقر ، ولكن أيام السرور عزيزة قليلة الوقوع ، كأنها طائرة أبداً ، يجب أن يتصيدها الإنسان ، فإذا حظي بها فعليه أن يتمسك بعراها ، لأنها ما تكاد تحط على سطوح المنازل في الدنيا حتى تطير .

وما نحب أن نقول إن الديوان كله عبث ولهو ، ففيه مع ذلك هجاءٌ ومديح ووصف ؛ فقد دخل الوجلان أحياناً فيما دخل فيه الشعراء الآخرون فأقبلا على سيف الدولة في حب ، وانصرفا إلى الوزير المهلبيّ فأرسلا إليه تهنئة وتحيات .

ومن خلال هذا الشعر ، وقفنا على وصف قصر سيف الدولة أبدع فيه الأخ الأكبر ، فخلف للقصر لوحة تكمل ما ضاع في التاريخ عنه ، وترفع للأديب مناراً . ووقعنا فيه كذلك على وصف ستارة غطت الجدار وعليها بزاة وطيور وسباع وظباء ، فكأنما استعمل الشاعر الريشة التي دارت في أنامل قدماء الرومان ، لا تنقصها الأصباغ والألوان والحركة والظلال ، أو كأنما استعمل

الازميل في أَيدي قدماء اليونان حين كانوا يصنعون الدمى والتماثيل البارعة .

وأَما الأَخ الأَصغر فقد سار في الدرب نفسه ، وطرب وتفنن واشترك في الحب واللذائذ ، وأَقبل على الورق يبثه قصيده وحي العيش وصورة العمر .

وهكذا اتفق الأَخوان في العيش الماجن ، وفي العبث بالنساء وغير النساء ، وفي الجدّ والفنّ ، فكانا صورة واحدة لرجلين ، بينهما عشر سنين في اختلاف العمر ، أنفق القدماء من نقادنا كلّ براعتهم في إيجاد جملة ترسم حالهما فلم يقنعوا بكل ما أَوردوا ، فقد سبق الثعالبي إلى ذلك ولحقه العمريّ فاستنفد التشبيهات في الإثنين المتماثلين ليصف عجبه وإعجابه ، فما لنا حيلة في إضافة شيء إلى ما قالوا عنهما .

والديوان يصف هذا الاتفاق في الموضوعات والصور والأساليب ـــ كما قلنا قبل قليل ـــ ، فكأَنهما نفس واحد ولسان واحد ، وقافية متعاقبة متوازنة ، لا نفرّق بين شاعر وشاعر ، ونعجز عن ذلك كما عجز الصابي قبلنا بعشرة قرون حين سئل أَن يحكم لأَحدهما دون أخيه .

وأكثر الشعر في هذا الديوان يتصل بالحياة الإنسانية ويتَّصف بالصدق الفني ، فكأنه جريدة يوميّة لحياة ، تتَّسم ألفاظه بالوضوح والسهولة ، فلا حوشي ولا غريب ولا تعقيد على الرغم من أن الديوان تطرّق إلى حكمة الحياة وتناول عبرة الدهر من خلال معانٍ يغلب عليها العمق .

قلنا إننا سلكنا في تحقيق الشعر الطريق التي سلكها الثعالبي ثم العمري ، نقلنا عنهما ما أورداه من شعرٍ مختار ، وفصلنا بين الأخوين كما فعلا ، فجعلنا لكل منهما ديواناً مستقلاً ، وقدمنا الأخ الأكبر أبا بكر على أخيه أبي عثمان .

ورتبنا شعر كل منهما على حروف القوافي ، ورقمنا القصائد والأبيات ، كما كنا نفعل في نشر مخطوطة قديمة ، وعلقنا في الحواشي قبل كل شيء على جوّ القصيدة ، فأثبتنا التخريج ، وذكرنا المصادر التي روت الأبيات بأجزائها وصفحاتها مخطوطة أو مطبوعة ، ثم جعلنا في الهوامش صور الخلاف بين الروايات في المصادر .

ولقد وقفنا طويلاً عند التخريج على نسبة الأبيات إلى الشاعر ، لئلا تكون مزيفة أو منحولة له ، ثم عالجنا نسبتها إلى أحد الأخوين ، فكثيراً ما تكتفي بعض المصادر بذكر اسم الخالدي من غير تحديد .

ولقد نقلنا عن المصادر التي بلغ إليها علمنا ، فأضفنا إلى الثعالبي والعمري ما روته خمسة وثلاثون مصدراً من مطبوع ومخطوط ،

وحسبنا أنها وحدها التي ذكرت من شعر الرجلين ، فربما وقع في غيرها شعر الأخوين ، ولم نقف عليه حين استقرأنا المصادر ، واستعرضناها كلها ؛ رغم حرصنا على البيت الواحد نضيفه إلى الديوان . وعذرنا في هذا أن الطبعات القديمة ما تزال من غير فهارس تشير إلى الشعر أو تذكر ورود اسم الشاعر عداد الصفحات ، ولا يمكن استخراج الشعر من ثنايا هذه الطبعات إلا بقراءة صفحاتها كلها واستعراض سطورها جميعها .

وعلى الرغم من صعوبة هذا العمل ، عمدنا إلى تدقيق هذه الكتب المخطوطة المتناثرة في أطراف القاهرة واستانبول ودمشق . فلم نتراجع عن رحلة أو زيارة ، ولم نوفر من أجل الشاعرين وقتاً أو جهداً أو عناية . وقد عملنا لهما ونحن في سبيل البحث عن زملائهما من شعراء الحمدانيين كما قلنا ، وهم فرسان القول في « البلاط » ينشدون شعرهم على أوتار تختلف عن شاعرينا .

ولم يفزعنا تداخل هذه الدواوين ، وتسارق الأبيات عند أصحابها . وتشابه فنون القول فيها ، فهم أرباب مدرسة واحدة متعاصرة ، هي مدرسة الشام في الشعر ، وهي تستحق هذه العناية وهذا الجهد .

ولقد حاولنا أن نشرح بعض الكلمات ، فأثبتنا في الحواشي مَا جاء في المعاجم الميسّرة لتوضيح البيت جهد الإمكان ، ووضعنا مختلف الشروح ليأخذ منها القارىء ما يراه مناسباً لجوّ الأبيات .

وضبطنا أكثر الكلمات ، وفصلنا بينها بفواصل وترقيم ، وإشارات تعين على تفهّم الشعر وتحبيبه إلى القارىء ، كأننا نطبع الديوان لشاعر معاصر .

وأملنا أن يحظى هذا « الديوان » بعناية الأدباء والدارسين وأن يجد فيه القارىء براعة تقف للشعر المعاصر الجديد في ألوانه وظلاله وصوره ، فيؤمن معنا بأن التراث العربي متّصل الحلقات ؛ لم يحرم الابتكار والاختراع في كل عصر من عصوره ، فهو خالد ، وجدير بالحب والقراءة .

ويشهد الله أننا عملنا لهذا التراث بوحي الحب والتقدير ، خدمة للّغة والوطن ، والله من وراء القصد .

دمشق الشام في ٧ كانون الثاني ١٩٦٩ سامي الدهان